تنّين القديس جرجس

بنسبة عبده في ٢٣ نيسان

نبذة للاب لويس شيخو اليسوعي

لمّا كتبنا في المشرق (٦ [١٩٠٣]: ٣٧٥-٣٩٩) مقالة مطوّلة بنسبة المئة الثالثة عشرة لتذكار استشهاد القديس جرجس ثم اردفناها برواية اثر جديد من اعماله (١٠ [١٩٠٧]: ٤١٤-٤٢٠) شككنا في صحّة ما يروى عنهُ في قصّة قتلهِ للتنين سواء كان في بيروت كما هو شائع في بلاد الشام ام في غيرها كما يرويهِ بعض الكتبة. وكان من جملة ما استدللنا بهِ على زعمنا ما كتبهُ البولنديّون ائمّة الانتقاد في اخبار القديسين انّ هذه القصّة لا اثر لها في كتابات المؤرّخين قبل القرن الحادي عشر اعني ٧٠٠ سنة بعد استشهاد ذاك البطل الصنديد

ثمّ انّ الكتبة المتأخرين قلّما يعيرون بالًا للتنّانين والوحوش الغريبة التي ورد ذكرها في التواريخ القديمة بل يعدّون رواتها قليلي التبصّر في مواليد الطبيعة منقادين الى خرافات العوامّ واوهامهم الباطلة

وليست غايتنا في هذه العجالة ان نقيل آراء علماء الطبيعة في هذا الشأن ولا ان نبحث عن صدق الرواة الاقدمين في ما ذكروهُ من هذا القبيل وهم يؤكدون صحّتهُ. الّا انّنا قرأنا في التواريخ القريبة الى زماننا قصّة اجمع على حقيقتها مؤرخون موثوق بقولهم مع عدد كبير من شهود العيان (١ . نعني بذلك تنّين جزيرة رودس الذي ظهر في زمن فرسان رودس في عهد رئيسهم العام هليون دي ڤيلنوڤ (Hélion de Villeneuve) الذي دبّر طائفتهم من السنة ١٣١٩ الى سنة وفاته ١٣٤٦

فلمّا كانت السنة ١٣٤٠ تقريباً ظهر في الجزيرة تنّين عظيم كان على صورة ضبّ

١) تابع تاريخ بواسّا (Chronique de Boissat) ثمّ تاريخ فرسان مالطة لفرتو (Vertot: *Histoire des Chevaliers Hospitaliers de S^t Jean de Jérusalem. t. V. 137*) ثم تاريخ جزيرة رودس لبليوتي (Biliotti: *L'Ile de Rhodes. 146-150*)

كبير شبيه بتماسيح النيل طولهُ بضعة اذرع وظهرهُ كظهر السُّلحفاة صلابةً ذو قشور لا يعمل فيها الحديد ولهُ اربع ارجل تنتهي بمخالب مرهفة وذنب طويل ورأسهُ شبيه برأس التمساح متغلطح على طرفيهِ اذنان كاذني البقل ولهُ فم واسع مع عدَّة انياب في فكيهِ وعيناهُ تقدحان ناراً . وكان لونهُ كمثل لون الحديد اما بطنهُ فكان لين الجلد يضرب الى اللون الاخضر . وعلى جانبيهِ زُعنفتان كزعانف السمك او اجنحة الطير يستعين بهما في سيرهِ

فهذا الحيوان الغريب كان احتلَّ مغارة رطبة تعرف بمغارة موپاس (Maupas) ويسمُّونها اليوم سَندرولي يتأتَّ منها الماء فيسيل الى مستنقع هناك ذي مياه آجنة تنبعث منها الروائح القبيحة . وكان اذا اقترب من غورهِ حيوان وثب عليهِ فوراً فابتلعهُ . فكان يسطو على القطعان فيأكل خرافها ويلتهم البقر والخيل وربَّما هجم على الرُّعاة فقتك بهم حتى اصبح لاهل الجزيرة آفةً فسعى بعض كُماتهم بقتلهِ فلم يفلحوا اذ لم تكن اذ ذاك شاعت البندقيَّات الناريَّة فكان التنين يصرعهم بذنبهِ ثم يفترسهم

ثم اراد بعض فرسان رودس ان يوقعوا بهِ وينقذوا الجزيرة من شرّهِ فكان نصيبهم نصيب كماة الجزيرة حتى انَّ رئيس الفرسان السابق ذكرهُ امر مرؤوسيهِ ان يكفُّوا عن مقاتلة ذاك الوحش صوناً لحياتهم

وكان بين الفرسان شابٌّ شجاع صادق البأس يُدعى ديودونه دي غوزون (Dieudonné de Gozon) من بلاد پروڤنسة جنوبي فرنسة من اسرة عريقة في الشرف . فهذا امتعض من امر الرئيس اذ كان يتأبَّب بأساً ويتري ان يحرز لهُ اسماً شريفاً بين كماة عصرهِ بقتل ذاك التنين

فلتحقيق نيَّتهِ طلب من رئيسهِ ان يعود مدَّةً الى قصر اجدادهِ وهناك اصطنع هيكل حيوان شبيهٍ بهيكل التنين في صورتهِ وهيئتهِ ولونهِ وحركاتهِ ولستحضر كلبين من كلاب الرعاة الشرسي الطباع فاخذ يتمرَّن على قتل التنين ويضري الكلبين عليهِ لاسيَّما على بَقر بطنهِ الخالي من القشور فوجدهما طوع بنانهِ . وكذا فعل بفرسهِ ليعتاد منظر الوحش . فلمَّا تمَّ لهُ المرام عاد الى رودس ومعهُ الكلبان ثمَّ سار خفيةً عن رئيسهِ ودون علم الفرسان رصفائهِ الى مأوى التنين راكباً جوادهُ شاكًّا بسلاحهِ بعد ان دخل كنيسة القديس اسطفان التي كانت مطلَّة على مقام الوحش وصلَّى فيها صلاةً

حارّة ليظفره الله بذاك الحيوان ثمّ سار وبيده رمحهُ لمقاتلة التنين

فما شعر الوحش بقدومهِ حتى خرج من غورهِ متنمّرًا غيظًا يقصد افتراسهُ فثبت الفارس امامهُ وضربهُ برمحهِ دون ان يؤثر ذلك في جسمهِ واعًا نفخ نفخةً هائلة وزفر زفيرًا هلع لهُ الجواد وارتدّ الى الوراء بخلاف الكلبين اللذين حملا على الوحش . فاسرع اذ ذاك الفارس ونزل عن جوادهِ ثمّ تقدّم الى التنين ليضربهُ بسيفهِ ضربةً قاضية . فرفع التنين رجليهِ ليهجم عليهِ فرأى الكلبان بطنهُ مجرّدًا فوثبا عليهِ يبقرانهِ وادخل الفارس سيفهُ في حلقهِ . فانتصب الوحش وضرب الفارس بذنبهِ ثم خارت قواه فسقط ميتًا فوق قرنهِ فضغطهُ بثقلهِ

فغاب الفارس عن الحواسّ وكاد يغطس من رائحة الوحش المستكرهة الّا انّ اثنين من خدّامهِ كانا كشفا لهما سرّ مقاتلتهِ للوحش وهما يشاهدانهِ عن بُعد اسرعا فأتيا الى مساعدتهِ واخرجاهُ بعد العناء والمشقّة من تحت الحيوان وجرّداهُ من اسلحتهِ . ثمّ نضحا الماء على وجههِ ففتح الفارس عينيهِ وكان اوّل ما وقع بصرهُ على التنين المضرّج بدمهِ قريبًا منهُ . فانتفض للحال وعادت اليهِ كلّ قواهُ ثمّ جثا راكعًا ليشكر الله على نجاتهِ وعلى خلاص الجزيرة من عدوّها

وكان خبر انتصار الفارس قد بلغ اهل المدينة وانتشر بينهم انتشار البرق فخرجوا الى ملاقاتهِ وادخلوهُ البلد مترنّمين بمديحهِ ناشدين الاهازيج صارخين : هوذا البطل الذي خلّصنا ومواشينا ورعاتنا من الوحش الضاري والتنين الرهيب

على انّ رئيس الفرسان اذ بلغهُ صنيع مرؤوسهِ ساءهُ فطنهُ لمخالفتهِ اوامرهُ وقوانين رهبانيّتهِ . فلم يشأ ان يسمع كلامهُ بل امر ان يُجرّد من ثوب الفرسان ويُلقى في السجن دون ان يحنّ عليهِ او يرضخ لشفاعة اخوتهِ الفرسان

فما كان من امر ديدونه الّا ان رضي بحكم رئيسهِ ومشى الى حبسهِ ليكفّر عن ذنبهِ . فلمّا رأى الرئيس طاعتهُ وحسن سلوكهِ في قبول القصاص رضي عنهُ واعادهُ مسرعًا عند وصولهِ الى باب القاعة وقام فقبّلهُ واثنى على تواضعهِ وعلى شجاعتهِ معًا قائلًا : «انّ انتصارك على نفسك اعظم عندي من انتصارك على التنين» وردّ لهُ بزّة الفرسان والى الجميع يهنّونهُ على ظفرهِ بالتنين

وبعد ثلاث سنوات توفّي الرئيس هليون دي ڤيلنوف فوقع الانتخاب على

ديودونه دي غوزون كرنيس عام عليهم لما عرفوهُ من بسالته بعد قتلهِ التنين قد برهم ثماني سنين من ١٣٤٦ الى ١٣٥٣

اما التنين فقُطع رأسهُ وعُلق فوق احد ابواب المدينة المعروف بأمبواز فبقي هناك الى اواسط القرن التاسع عشر فعاينهُ كثير من زوّار رودس ووصفوهُ كما سبق

ولما كان الشبيه بالشبيه يُذكّر نقول انّ في تاريخ هذا التنين الحقيقيّ ما يقرّب الى تصديق ما رُوي عن تنين مارجرجس لو وردَ فيه خبر اكيد يرتقي الى زمن القديس

ولعلّ ما كتبهُ القزويني في عجائب المخلوقات عن التنين (ص ١٣٢) لا يخلو من بعض الصحّة بعد ما ورد عن تنين رودس قال :

«التنين حيوان عظيم الخلقة هائل المنظر طويل الجثّة كبير الرأس براق العينين واسع الفم والجوف كثير الاسنان . . . ولونهُ مثل لون النسر عليهِ فلوس مثل فلوس السمك بجناحين على هيئة جناحي السمك واذناهُ طويلتان وعيناهُ مدوّرتان . . .»

والله اعلم !

مطبوعات شرقيّة جديدة

Abbas Tobias Anaissi : Collectio Documentorum Maronitarum . 1 vol . in-12 , pp. 217, Liburni 1921 .

مجموع آثار مارونيّة

كان حضرة الاباتي طوبيا العنيسي من رهبانيّة البنانيّة الحلبيّة أتحفنا سابقاً بمجموع البراءات المنوحة لطائفة الموارنة (Bullarium Maronitatum) فأثنينا على عملهِ (المشرق ١٥ [١٩١٢] : ٥٤٩) وعرضنا لمؤلفهِ ما خطر على بالنا من التحسينات . وها هو اليوم تفضّل وارسل لنا مجموعاً جديداً من الآثار المارونيّة التي وقف عليها في سجلّات المجمع المقدّس وفي المكتبة الفاتيكانيّة ومكاتب اخرى في رومية العظمى مما يبلغ عددهُ ١٣٤ اثراً . فلا شكّ انّ كلّ الباحثين عن تاريخ الشرق المسيحي يُسرّون بهذه الاكتشافات ويشكرون لجامعها فضلهُ وهمّتهُ ويتمنّون ان تحذو كلّ